البينية والتعددية

مداخل أساسية فى العلوم العربية والإسلامية وأصول المنهج المعاصر

أ.د. عبد الله التطاوى

نائب رئيس الجامعة

لعل السمت المميز للعلوم العربية الإسلامية أنها جاءت مُركبة بشكل معيارى ينطلق أساسه من الرحابة والاتساع والعمق ، ويتكئ مرتكزه الأول على الموسوعية والتخصص فى آن ؛ أما الرحابة والاتساع فربما تجلت قسماتها من خلال عدة ظواهر ومشاهد كبرى منها :

١- أنها ثقافة عربية تضمّت المسلمين وغيرهم منذ نهضت على الشراكة الفاعلة من ذوى الديانات الأخرى والمذاهب والملل والفرق ، فتجاوزت فكرة التعصُّب للدين الإسلامى ، وفتحت أبوابها للتعدُّدية وقبول الاختلاف، مع تعددية صور العطاء لكل المقيمين تحت مظلة الدولة الإسلامية ، فضربت بذلك مثلاً رفيعًا فى حرية التفكير والتعبير ، وتجاوزت مفاهيم التصادمية والصراع لتصنع صيغ الحوار والتلاقى والتثاقف .

٢- أنها إسلامية تجاوزت التعصُّب للأجناس ، فكانت المشاركة فيها أكثر عمقًا من غير الجنس العربى ؛ الأمر الذى تطلب - بدوره - تحديد مفهوم الأجناس بمعزل عن المولد اندفاعًا إلى عروبة الثقافة والفكر والنشأة ، فشارك فيها البخارى والرازى والجرجانى والسمرقندى والإدريسى والفارابى بلغتها ؛ ودافع عنها الفارسى قبل العربى ، على

غرار ما وقع من الجاحظ وابن فتيبه قبل دفاع المتنبى وابى فراس وغيرهما من شعراء القرن الرابع الهجرى .

٣- أنها بدت ثقافة حية متطورة بقدر مرونتها التى لم تعرف الانغلاق، ولم تتقبل الانكفاء على الذات فى مقابل ما عرفته من ثقافة الأخذ والعطاء، التأثر والتأثير وأصول المثاقفة وبرامجها ؛ مما ضمن لها البقاء والتواصل والاستمرارية ، على غرار ما تجلّى فى تطور لغتها عبر دراسات المُعرّب والدخيل فى اللغة ، إلى غيرها من نظريات متضاربة فى عالم النقاد بين الموازانات النقدية ، والوساطات ، والخصومات ، وكلها كانت تحترم ثقافة الاختلاف والتعددية ، وتُعظّم لغة الحوار مع الآخر دون ثماهٍ أو استعلاء .

٤- أن خطابها جَمَع - وعيًا - بين العمق والوضوح ، بقدر ما جمعه بين الموسوعية والتخصص ؛ فكانت كتابات الجاحظ - مثلا - كاشفة عن مقومات الحياة العباسية من خلال بيانه وتبيينه ، ورسائله ، وحيوانه، وبخلائه، وعلى غرار ذلك كانت مناهج كبار العلماء الذين يحار المرءُ فى تصنيفهم بين أبواب المعرفة على طريقة ابن سينا بين "كتاب الشفاء" فى القانون ، وكتاب القانون فى الطب ، وما كان من موقعه - مفكرًا - على خريطة الثقافة العربية عالمًا وناقدًا وأديبًا ومؤرخًا وشاعرًا بما يجعله موسوعة متحركة بمنطق المرحلة على النحو الذى ركزته مقولة الجاحظ حول وجوب الإلمام من كل علم بطَرَف دون أن يرمى - مطلقا - إلى تستطيح المعرفة ، بقدر ما قصده من تحقق العمق العلمى المتخصص والذى تجلّى فى الكيمياء - مثلاً - عن ابن حيان ، والبصريات لدى ابن الهيثم ، والدورة الدموية لدى ابن النفيس ، والطب عند الرازى ، والرياضة عند الخوارزمى ، الفلسفة عند الكندى والفارابى، ومثل ذلك كان الفكر النقدى والبلاغى عند عبد القاهر

الجرجانى ومن سار على منهاجه من كبار البلاغيين والنقاد بين مشرق العالم الإسلامى ومغربه .

٥- وأن منهجها قام على صناعة الازدواجية الهادئة منذ إنشاء الرشيد دار الحكمة فى دار السلام (بغداد) ، والتى تجاوزت فيها علوم الأوائل مع إفرازات قلم الترجمة ، ودار فيها الحوار جادًا بين المدارس والأقطاب ، فكانت صلة القربى بين فن الشعر عند العرب إبداعًا ، وبين ما ترجموه نقدًا من حصيلة كتاب (فن الشعر) لأرسطو ، وكذا فن (الخطابة) ، وعلى غرارها كانت قسمة المدارس العلمية موزعة بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأى فى علوم القرآن ، وفى علم الحديث بين السند والمتن ، وفى البلاغة بين المحافظين والمجدّدين ، وفى النقد بين القدماء والمحدثين، وفى التاريخ بين العام والخاص ؛ بدءًا من تاريخ الأمة الإسلامية ، إلى تاريخ الخلفاء ، إلى تاريخ المدن، إلى أخبار الشعراء أنفسهم . فبدت قسمة المدارس والاتجاهات كاشفة عن ثقافة التعدُّدية المبكرة ، وقبول الحوار بمنأى عن منطق التحدِّى وروح العنف بقدر ما تمتعت به من صيغ التعايش والمصالحة ، مما ضمن لها التواصل والبقاء إلى جانب الذيوع والانتشار .

٦- وفى سياق التعدُّدية جاءت العلمية والإبداع سمتًا دالاً عليها كاشفًا عن جوهرها ، على تفاوت مراحل التميز التى شهدتها مرحليًا بين الشفاهية والكتابة، بدءًا من عصر التدوين المنظم الذى رحل فيه الرواة إلى عمق البادية لجمع الشعر العربى من مصادره الأصيلة ، إلى ما انتهوا إليه من تدوينه بأدوات متقنة وآليات جادة تأثروا فيها بمناهج علماء الحديث وأقطابه من حيث التوثيق والجمع والتصنيف والتدوين قبل مراحل الشرح والتحليل والنقد ، ومن الجيد الذى يُحسب لها ما جمعته من حوارات حول الإبداع ، إلى السعى الدائم وراء الجديد فى نظريات العلم ، إلى المشاركة

فى حلبة المعرفة بما نقله المترجمون من الثقافات اليونانية والهندية والفارسية ، وما أضافوه إليها عبر المشاركة والابتكار والتجديد ، مما جعل للعقلية العربية دورها الفاعل فى ساحات الإبداع ومواطن البيان ، بما يتوازى مع تقدُّمها الملموح فى إفراز العلم وإنتاج المعرفة دون انقطاع أو توقف .

٧- أن التدخل البَيْنى ظل سمتًا واردًا فى مراحل تأسيس الفكر العربى وتواليها على مدى حقبه ومدار عصوره ، بحيث يصعب تمزيق الروابط، أو تجاهل الخيوط الفاصلة – مثلا – بين مدارس الإبداع موزعة بين طبع وصنعة أو بين مجدِّدين ومحافظين ؛ حيث تبدو القسمة جائرة إذا لم تقم على أساس التغليب ، وليس الفصل القطعى بين المدارس والاتجاهات ، وهى ذات الرؤية التى تأسَّس على منهجها منطق العلماء العرب فيما طرحوه عبر مدارسهم ومؤلفاتهم بين لغوى وأدبى ، نقدى وبلاغى ، نظرى وتطبيقى ، وهو المنطق الحاكم للدارس حين يجنح إلى البحث عن أسس التكامل بين المواد المساعدة فى مساق الدرس الأدبى – على سبيل المثال – إلى التاريخى ، والاجتماعى ، والنفسى ، والشكلى ، والجمالى ، قصدًا الى استكمال طبيعة المشهد العلمى من قبيل الاستقراء والاستقصاء بعيدًا عن تلفيق المناهج أو خلط الأوراق ، وبمنأى – أيضًا – عن شبهة الوقوع فى حماة الجزر المنعزلة أو المناطق الممزقة فى منظومة الفكر الإنسانى على المستوى المنهجى .

وانطلاقا من تاريخ ثقافتنا ، وانتهاءً إليها نتوقف عند طبيعة علاقتها بالآخر من حيث مستوى التفاعل معه ، ودرجة القبول والتوافق ، أو تتبع طبيعة الحوار من خلال عطاءاته بما يمكن قراءته تاريخا وواقعًا من خلال عدة مشاهد أخرى نذكر منها :

١- مشهد الترجمة بمراحلها المبدئية التى اختلط فيها أمر المصطلح على العرب أنفسهم حين اطلعوا – مثلا – على الدراما أو " الترجيدى" و "الكوميدى" فى الأدب اليونانى ولم يجدوا ما يقابله لديهم فى أدبهم بسبب غياب المسرح العربى عن ساحتهم ، ولكنهم أصرُّوا على إيجاد النظير فتلمسوا الاشباه فى فن المديح ، وما يرتكز عليه من بطولة الممدوح إعجابا به وإشفاقا عليه باعتباره رمزًا للأمة ، أو فن الهجاء بوصفه مدخلاً للسخرية والنقد ، قصدًا إلى رسم البسمة على شفاه الجمهور.

بمثل هذا الإلحاح على النقل حدث ذلك التلاقى بين الثقافة والإبداع ، وهو ما جاء مكملاً للتلاقى بين الأنواع الأدبية فى فن الشعر ، والشعر القصصى والمسرحى عند اليونان – مثلا – وفن الشعر الملحمى لديهم أيضًا ، ولدى الرومان والفرس والهنود بما يماثله إيقاع منظومة الشعر الحربى التى ارتسمت ملامحها عبر أيام العرب وحروبهم القبلية من "البسوس" ،ارتسمت ملامحها عبر أيام العرب وحروبهم القبلية من "البسوس" ، إلى "داحس والغبراء"، إلى بداية المواجهة القومية فى يوم ذى قار .

٢- طبيعة التوازى بين الأنواع الأدبية التى نقلها علماء العرب وبين الأنواع التى أبدعوها ونبغوا فيها بما يدعونا إلى مراجعة أطروحة (الجاحظ) فى توزيع مصادر التفوق بين شعوب الأرض ، منذ سجّل لليونان نبوغهم فى الفكر والمنطق والفلسفة ، وللفرس تفوقهم فى السياسة والحروب ، وللهنود تميُّزهم فى الحكمة والرياضة والفلك ، وللعرب نبوغهم فى فنون الإبانة والبلاغة والفصاحة والبيان ، فما قصد الجاحظ وضع الحدود والحواجز الفاصلة بين الأشياء بقدر ما قصده من أمر التغليب فحسب ، بدليل ما صنعه العقل العربى فى علاقته بالآخر ، وما صاغه الوعى المعرفى من علوم تطبيقية ومعارف شتى لم يقف إزاءها موقف المتفرج

حين ترجمها بقدر ما أخذه من موقف المشاركة والإضافة والتجديد والابتكار عبر علوم الطب والكيمياء والفيزياء والفلك والهندسة والرياضة وغيرها !

٣- مشاهد التحوُّل المركب فى الحياة العربية من خلال تفاعل مؤشرات العقل مع الوجدان . وهو ما أفرزته قرائح القوم بين الثوابت والمتغيرات، بين الأصول والفروع ، بين القياس المنطقى والقياس الفنى، بين الصقل المعرفى ونتاج الموهبة ، بين النموذج والمثال ، بين الفردى والجمعى ، بما تنعكس منه صور وجوانب شتى فى مواقف المبدعين موزعة بين النظرية والتجديد ، بين الرؤية والموقف ، بين الإبداع والفكر ... كما ظهرت تجلِّيات المُركَّب فى الحياة العربية من خلال قدرتها على استيعاب الوافد عليها تمثُّلاً ووعيًا إلى إعادة صياغته ذوْبا عربيًا أصيلاً يجمع بين القديم والمستحدث العربى والمترجم فى ظل مفهوم واضح وواسع لقيمة المشترك الإنسانى تحت مظلة حضارة راقية وفكر واع أصيل .

٤- أن عنصر القوة والرصانة ظل شاخصًا فى بنية مرتكزات الثقافة العربية بما تهَّيأ لها من عناصر المرونة والتحديث ومواكبة عملية التطور والتجديد ، ولعل بقاءها ظل رهنًا بمرونتها وموسوعيتها ورحابتها وعمقها فى آن ، ولعل تطورها ظل – أيضًا – ماثلا فى قدرتها على التعايش والتمثُّل والاستيعاب انطلاقا من سعة الأفاق وحرية الفكر قبل أية اعتبارات أخرى .

أما عن ضرورة الدرس البينى فى المناهج المعاصرة :

فيظل من البديهى فى عصر التقدُّم العلمى المتلاحق ، وفى زحام الثورات المعرفية المتراكمة أن تزداد حاجتنا إلى ما يشبه موسوعية القدماء ، أو ما يقاربها ، بدلاً من محاولة الانحسار فى حدود التخصُّص الدقيق استجابة لإيقاع المرحلة ، وانطلاقا من متطلب الفترة ؛ الأمر الذى يوجب إعادة النظر

فى برامج العمل العلمى بين المتخصصين ، ولنضرب مثلا من أهل اللغات وزملائهم فى العلوم الإنسانية والاجتماعية ، فمن غير المناسب – علميًا – أن يفقد دارس الأدب العربى علاقاته بعلم اجتماع الأدب ، أو علم نفس الإبداع ، أو مقومات الفكر الفلسفى ، أو عبقرية المكان الجغرافى . إلى جانب دراسة التاريخ منطلقًا ضروريًا لاستكشاف مناطق التفوق ، وتفسير ما وراءها من أبعاد ومؤشرات ودلالات إلى غير ذلك من دراسات واجبة للعلوم اللغوية والبلاغية والنقدية والإحصائية وغيرها .

وربما كان من قبيل الضرورة – مثلاً – أن ندرس الشاعر مؤرخًا أو المؤرخ فنانًا وعالمًا ، أو أن ندرس – أيضًا – الشاعر مفكرًا والفيلسوف مبدعًا ، ففى مثل ذلك تلك البينية ما يُوحى بتأكيد مقولة إنسانية المعرفة فى ظل هيمنة القواسم المشتركة التى يصعب التخلُّص منها ، أو التنكُّر لها ، كما يصعب تهميشها فى ظل بنية مرتكزات الحضارة المعاصرة .

ثم تمتد الظاهرة لتلقى بظلالها على طبائع التخصُّصات العلمية الدقيقة فيما يحكمها من وحدة المنهج بأصوله ومقوماته الفكرية فى كل مجالات البحث الأدبى والنقدى ، واللغوى ، والاجتماعى ، والنفسى ، والجغرافى ، والتاريخى ، لاسيما حين تحكمنا لغة التفكير العلمى حين نتجاوز الفوضى والعشوائية ، إلى رفض الارتجال والتخبُّط مع العزوف عن الانطباع والتأثرية ، وصولاً إلى بدايات الخيوط الصحيحة فى أصول المنهج بما يتطلبه من وجوب الاستقراء والاستقصاء ، وأمانة المرجعية والاعتداد بأخلاقيات البحث العلمى نظرًا وعملاً.

واستكمالاً لتلك الرؤية ، وتأكيدًا عليها يأتى ذلك المنطلق حيث يجعل من واجبنا زيادة التأصيل للمناطق البينية الضامنة لصحة دراسة تاريخ العلوم، وربما نُصاب بصدمة علمية ودهشة إذا تراءت لنا صورة العلم مشوَّهة أو ناقصة لدى الأطباء الذين لا يعرفون عن تاريخ علمهم ما صنَّفه

ابن سينا ، والزهراوى ، والرازى ، وابن النفيس ، وابن الهيثم ، ولدى علماء الرياضة ممن يجهلون الفكر العربى والتجريد الذهنى عند الخوارزمى وقرنائه ، ومثل ذلك فى فروع المعرفة التى تضرب بجذورها فى عمر الزمان وعمق الحضارة العربية الإسلامية بكل فروعها ومجالات ابتكار علمائها بين المصنف والمؤلَّف والمترجم سواءً بسواء .

فهل آن لنا أن نوصى أنفسنا وعلماءنا فى المجالات العلمية بأن يدرسوا تاريخ العلم بدلا من قصر الأمر على عطاءات قسم الفلسفة بكليات الآداب فى هذا السياق ؟ وهل يصبح من حقنا أن نأخذ بمنهج الجامعات العربية فى حتمية النظر فى أسس التثقيف العام من خلال المقررات القومية التى تبدأ من اللغة بوصفها بيت الكينونة ومدخل الهوية ومحور الكيان القومى والشخصية القومية ، لعلنا نتفادى الأخطاء الشائعة التى تتكرر فى مكاتبات المثقفين وحواراتهم ؛ بل يصل الخطر أقصاه فى رسائلهم الجامعية ودراساتهم ومؤلفاتهم العلمية !!

وهل آن لنا أن نتواصى بإنجاز دراسات عصرية تفى باحتياجات المثقف فى تعامله مع البيئة والمجتمع على المستويات الأخلاقية والتربوية من باب التثقيف العصرى حول حقوق الإنسان فى درس بَيْنى يتبناه علماء القانون والاقتصاد والسياسة والتجارة والاجتماع وعلم النفس والتاريخ خروجا بنتائج جيدة تحكمها وحدة الرؤية وأصالة المنهج ؟!!

ولنقل مثل ذلك عن طبيعة التثقيف السياسى ، والقيمى ، والمنطقى ، وصولاً إلى الحد الأمثل من إنسانية الفكر وعمق الرؤية فى بنية منظومة المعرفة المعاصرة التى ضرب لنا القدماء فيها المثل والقدوة وأصبح من واجبنا وطموحنا أن نسير على دروبهم فى احترام صرامة المنهج ووضوح الرؤية ودقة الأدوات .